الشعر في عصري الطوائف والمرابطين خصائصه الفنية وموضوعاته

دول الطوائف:

ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بني أمية نتيجةً لضعف خلفائهم حتى انتهى الأمر لهشام الثالث سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣٠م فأخذ الولاة يستقلون بمناطقهم واتخذوا عواصم خاصة بهم ، ومن أهم هذه الدويلات:

١. **الدولة الزيرية :** قامت في غرناطة أقامها البربر ودامت ثمانين عاماً .
٢. **الدولة الحمودية :** وتنقلت بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء ، ودامت نحو أربعين عاماً
٣-**الدولة الهودية :** قامت في سرقسطة .
٤- **الدولة العامرية :** قامت في بلنسية .
٥- **الدولة العبادية :** قامت في أشبيليا وهي عربية ينحدر حكامها من اللخميين ، ودامت نحو سبعين عاماً .
٦- **دولة بني الأفطس :** اشتهرت بنهضة علمية ، وقد قامت في بطليوس ودامت ستة وستين عاماً .
٧. **الدولة الجهورية :** قامت في قرطبة .
٨- **دولة ذو النون :** قامت في طليطلة .

سبق أن قلنا إن الأندلس تقسمت عقب سقوط الخلافة الأموية إلى عدد من الدويلات والطوائف وكان كل من يأنس في نفسه القدرة من رؤساء الطوائف عرباً أو موالي يستقل بالإمارة التي يحكمها ويتخذ من أهم مدينة فيها عاصمة له.

وقد نشأت بين حكام هذه الممالك وملوكها حروب متصلة بلغ الأمر فيها حد استعانة بعضها بملوك الفرنجة ، كما وصل التنافس السياسي بينهم حدَّ التنافس في مجالات العمران والأدب والفن والطرب والغناء وتشجيع الكتاب والشعراء ، وبالرغم من ذلك شُغِل فريق بالبهرج والترف والتهافت على الصغائر والتلقب بنعوت الخلفاء مما سهل سخرية الشاعرابن عمار من بعضهم بقوله :

ممَّا يُزهّدني في أرض أندلسٍ أسماء معتمدٍ فيها ومعتضدِ

ألقاب مملكةٍ في غير موضعها كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ

وبرغم ذلك حظيت الحركة الأدبية بعناية فائقة على يد عدد من هؤلاء الحكام الذين كانوا شعراء وأدباء كالمعتمد بن عباد في أشبيليا والمظفر و ابنه المتوكل في بطليوس ، كما أصبحت مراكز الأدب وإشعاعاته ليس في قرطبة فحسب بل في مدن أندلسية كثيرة كما كان الحال في عصر الدولة الأموية ، وتعددت مراكز الثقافة بتعدد العواصم ، وأخذ العلماء والأدباء والشعراء يقصدون كل بلاط رغبة في نيل الحظوة وتكريم الحكام لهم .

وليس من العدل أن نحكم على عصر الطوائف حكماً أدبياً من منظور فرقته وضعفه السياسي، فالعصر وإن تردى سياسياً فقد نهض نهضة أدبية على يد المرابطين ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الدويلات رغم ما كان من أمرهم السياسي فإن الأدب في عصرهم عامةً لا يسير فيها مع السياسة ، فقد تعددت المراكز

الثقافية ، وكان معظم حكامها من الشعراء أمثال المقتدر بن هود، والمعتصم بن صمادح وعبد الملك بن رزين ، وإدريس بن يحيى ، والمظفر بن الأفطس ، وابن جهور ، وابن عباد ، لتصبح الأندلس في القرن الخامس وأوائل السادس تمثّل عصراً زاهياً من عصور الأدب والعلم والفن ..

دولة المرابطين :

نشأت هذه الدولة في المغرب من قبائل صنهاجة البربرية الذين عرفوا بالملثمين ، وكان زعيمهم عبد الله بن ياسين المعروف عنه شدة التدين ، وعندما كثر أنصاره ومريدوه نادى بالجهاد في أفريقيا ، وبلغت هذه الدولة أوج قوتها على يد يوسف بن تاشفين ، وبسبب ضعف الملوك في عهد الطوائف طمع الفرنجة بالتوسع حتى إن ألفونسو السادس حاكم قشتالة توغل في البلاد وعاث فيها الفساد ، حينها استنجد الأندلسيون بيوسف بن تاشفين وكتب إليه ابن عباد لإنقاذ الأندلس ، وسرعان ما هب لنجدتهم وحقق نصراً كبيراً ثم عاد الى المغرب ، وقد استمر الازدهار الثقافي فيها وانتعش من جديد فبرزت مجموعة كبيرة من الأدباء منهم :

ابن اللبانة / ابن سارة الشنتريني / ابن حمديس / الفتح بن خاقان / ابن الزقاق / ابن خفاجة/ابن بقي القرطبي / ابن بسام الشنتريني .

ابن حزم الأندلسي

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن سفيان بن يزيد ، ويكنى بأبي محمد ويلقب بالأندلسي والقرطبي ، وقد لُقّب بالفارسي نسبة إلى فارس ، وربما رُدّ إلى أصل إسباني ،ولد عام ٣٨٤هـ - ٩٨٨م بقرطبة من أبٍ وزيرٍ له مكانته بين حكّام الأندلس ، وهذا الوالد أثر في ابنه الذي اتجه مثل أبيه إلى العلم والصلاح والدفاع عن الدين وحب السياسة .

ولقد بدأ ابن حزم حياته في قصور والده الوزير وأسرته الغنية ، وقد توفيت والدته فكفلته نساء القصر، وكان من بينهن الجواري والحافظات العالمات اللاتي كنّ يراقبنه ويعلمنه القرآن واللغة والشعر بأمر أبيه الذي كان حريصاً على تنشئته تنشئة قوية في تلك الحلية من النعيم ، بيد أن هذه الرقابة لم تكن وحدها بل كانت هناك قيادة نفسية مع تلك الرقابة الحسية ، إذ وّجّه نفسه إلى صحبة المشايخ وأخذ يشغل فراغه بمجالسة العلماء فاغترف من مناهلهم العذبة واقتدى بأخلاقهم الفاضلة .

وهذه السعادة الهادئة لم تدم له ولا لأسرته فقد تدهور الحال وانتشرت الفتن الأهلية ، وظهرت حكومات محلية هزيلة هي حكومات الطوائف التي لم يكن بينها سوى المنافسات والمنازعات والحروب الأهلية التي أدت إلى بلبلة النفوس من الناحية الدينية فيما يتعلق بالعقائد ، مما أدى بابن حزم إلى الدعوة الصريحة للمذهب الظاهري .

ولقد تميز هذا العصر بازدهار العلوم على اختلافها ، وكان ابن حزم من أنشط المفكرين نتاجاً وأكثرهم تنوعاً وثراءً ، فقد كتب في اللغة والأدب والفقه وأصول الفقه والدين ، وانتقد تصرفات أمراء الطوائف ، وأبرز مثالبهم وظلمهم ، و لهذا السبب وغيره من الأسباب جرت محاولات عدة للنيل من علمه وأدبه فأحرقت كتبه وعانى من السجن والتعذيب والاضطهاد وضياع ما ورثه، فقد عارضه فقهاء عصره الحاقدون عليه ،

المنتفعون من مناصبهم وقد أثاروا عليه المعتضد بن عباد أمير أشبيلية ، فأصدر قراراً بهدم دوره ومصادرة أمواله وحرق كتبه ، تألّم ابن حزم كثيراً وأنشد قائلاً :

إن تحرقو القرطاس لا تحرقوا الذي تضمّنه القرطاس بل هو في صدري

يقيم معي حيث استقلّت ركائبي وينزل أين أنزل ويُدفن في قبري

وكان تتابع هذه الأزمات والنكبات التي اعترضت ابن حزم في حياته الأولى بمثابة دروس قاسية أجبِر عليها لكي تصقَل شخصيته ، فإن النعيم المطلق قد يحدث طراوة في النفس لا يكون معها جد ، فلا تتمرس بالحياة ولاتذوق لذة العمل والجهد فيها ، ولذة الوفاق ، وعنف الخصام ، ويعرف حلو الحياة ومرها. فمن هذا المزايا المتناقضة تكونت حياة ابن حزم ، إذ كان لاختلاط النعمة بالشدة وطيب العيش بجهد الحياة الأثر البالغ في أن ينتج لنا مزيجاً من الرقة والعنف ومن العواطف الناعمة والجدل الصارم في عصر فياض بالاضطرابات والأحداث المثيرة ، وهو عصر انحلال الخلافة الأندلسية .

وعلى الرغم من كل الأحداث والفتن والاضطرابات التي شهدها ، وصلت إلينا مؤلفاته ومن أبرز تلك المؤلفات وأبدعها كتابة طوق الحمامة في الألفة والألاف ، لأنّ فيه تسجيلاً لأحاسيسه القوية ، كما أنّ فيه دراسة عميقة للنواحي النفسية قائمة على أساس الإحساس القوي والفكر المستقري المتتبع متصدياً للنفس الإنسانية فيما تحب وتألف ، ولعل ذلك هو الباعث في أن يكون موضوعها "الألفة والألاف " لما اشتملت عليه من قصص الغزل وأحواله ، وكان طوق الحمامة من أكثر ا لآثار الأدبية تأثيراً في العرب والغرب على السواء ، وهذا التأثير نابع من أن مادته مستوحاة من البيئة الأندلسية المتمثلة بأمرين هما :

١- **الشعر العفيف** : لاسيما الغزل الرائق ، فابن حزم كان شاعراً وجدانياً ومن حق أي شاعر أن يخلد شعره في زمن الشباب والصبا لذلك وجد في الطوق مناسبة أو فرصة سانحة لكي يضمّنه شعره ، وبالتالي يكون الطوق عملاً أدبياً رصيناً حوى نثر المبدع وشعره وأدخله بذلك عالم الناثرين والشعراء في آن واحد

٢- **أخبار وقصص العشاق في الأندلس** و التجارب الشخصية للمؤلف ذاته ولأشخاص آخرين سبقوه زمنا أو عاصروه .

فنونه الشعرية :

شعره متين جزل يغلب فيه المعنى على اللفظ ، لكنه يبقى شعراً وجدانياً بعيد الأثر في النفس والفكر معاً وله أكثر من مئة قصيدة ، منها قصائد طوال ، ومنها مقطعات شعرية في أغراض متنوعة منها :

أ- **الغزل** كان ابن حزم يأخذ على الكثيرين من معاصريه الذين كانوا ينظمون شعر الغزل ، وقد سخر من الدموع الغزار التي يذرفو نها على ديار الحبيبة أو خيامها التي خلفتها ويرى أن الكلام الذي أكثر الشعراء منه في وصف بهجة الوصف لا يطابق الواقع إلا في القليل ، وقد سار الغزل في شعره باتجاهين هما :

-**الاتجاه الأول :** عبر فيه ابن حزم عن تجربة صادقة فوصف ما شهده وأحبه إحساساً عميقاً في نظم جزل لطيف ، وينم عن عاطفة مشبوبة متوقدة ، يقول :

وددت بـأن القلــب شُــق بمديــة وأدخل فيـه ثـم أطبـق في صـدري

فأصـبحت فيـه لا تحلّـين غيــره إلى مقتضـى يـوم القيامـة والحشــر

تعيشـين فيـه مـا حييـت فـإن أمـت سكنت شـغاف القلـب في ظُلـم القبر

وكان ابن حزم شديد التأثر بالجمال مما ينم عن تذوقه محاسن المرأة التي قال فيها :

يعيبونها عندي بشقرة شعرها فقلت لهم هذا الذي زانها عندي

يعيبون لون النور والتبر ضِلّة لـرأيُ جهـولٍ في الغوايـة ممـتـد

-الاتجاه الثاني : ما كان استجابة لرغبة صديق ، أو لطلب راغب كما بين في مقدمة كتابه طوق الحمامة ، وقد دعا في شعره الغزلي إلى صدق المحبة وعفتها ورهافة الحس ، وصفاء العاطفة ونقاء الوجدان بين المحبين ، فكان صاحب مذهب متميز في الفقه والحب العفيف ، لنستمع إليه وهو يتحدث عن حرارة المنع عن اللقاء بين العشاق والحظر على المحبوب من أن يراه قائلاً:

أرى دارهـا في كـلِّ حـين وسـاعةٍ ولكـن مـن في الـدّار عنّـي مُغيَّـبُ

وهـل نـافعي قـربُ الـدّيار وأهلـها علـى وصـلهم منّـي رقيـب مراقـبُ

فيالك من جار الجنب أ سمع حسّه وأعلــم أنّ الصّــين أدنــى وأقــرب

كصـاد يـرى مـاء الطـوى بعينـه ولـيس إليـه مـن سـبيل يسـبّب

ب- الزهد : كان ابن حزم مفكراً متحدّثاً ، وجوّاب آفاق ينازل العلماء والفقهاء ، ويتحدى بشعره آراء وعقائد متأصلة في الدين والفلسفة والفقه فنراه يبلغ حدّ الرمزية الصوفية وكأنه كان يهرب إلى هذا الجانب الروحاني الذي كلما ضاقت نفسه ذرعاً بالتشدد في الأخذ بالظاهر فيغلف الزهد بروح فلسفية مفعمة بالغموض قائلا :

فــأطرق باهتــاً ممــا رآه ألا في مثـل ذا بُهـت النبيـلُ

فقلـت لـه : دوائـي منـه دائـي ألا في مثـل ذا ضـلّت عقـولُ

وقد تمتلئ بعض قصائده الزهدية بالحكمة والتأمل والاعتبار فيقول :

ولا تـتخير فانيـاً دون خالـدٍ دليـلٌ علـى محـض العقـول

ج- الفخر :

امتاز شعر ابن حزم الأندلسي بالقصائد التي فخر فيها بنفسه وهي قصائد ذاتية نافح فيها عن موقعه ودافع عن غاياته فذكر فيها تكالب الناس على إيذائه والحط من قدره ،فقصائده قائمة على القوة والجزالة وليست معرضاً للتفنن بالرأي ، من ذلك قوله:

أما لهم شغلٌ عني فيشغلهم أو كلهم بي مشغولٌ ومرتهنُ

كأن ذكري تسبيحٌ به أُمِروا فليس يغفل عني منهم لسن

إن غبت عن لحظهم هاجوا بغيظهم حتى إذا ما رأوني طالعاً سكنوا

وله من القصائد التي يفخر فيها بنفسه ، قصيدة وجهها إلى ابن عمه عبد الوهاب بن حزم قائلاً :

كفاني ذكر الناس لي ومآثري وما لك فيهم يا بن عمي ذاكرُ

ولعل شعوره بوطأة خصومه وعداوتهم ، وما ذاقه من مر الحياة ماديُاً ومعنوياً ، هو الذي يشيع حرارة الصدق في هذه المقطوعات الجميلة .

ابن زيدون

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي ، ولد في قرطبة سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م وأصل أهله من بني مخزوم من قريش ، وكانوا على جانب من العلم والجاه والغنى ، تلقى علومه الأولى على أبيه الذي كان فقيهاً مشهوراً بالنباهة والعلم والأدب ، ولما توفي أبوه كفله جده لأمه القاضي أبو بكر بن إبراهيم بن سعيد ، ثم درس على يد أساتذة كبار كان منهم : القاضي أبو العباس بن ذكوان ومسلم بن أحمد القرطبي النحوي ، وقد ظهرت عبقريته مبكراً في مرثيته لشيخه ابن ذكوان حين كان في العشرين من عمره ، وفي سنة ٤٢٢ هـ اضطرب أمر الأمويين في قرطبة ففر هشام الثالث عنها وكان أبو الحزم جهور وزيراً له ، وخاف أهل قرطبة من عواقب الفوضى فوجدوا في ابن حزم حاكماً قديراً فولوه أمر قرطبة ، فأنشأ فيها دويلة من دويلات الطوائف ، فاتصل به ابن زيدون ووزرَ له ، وكانت بين الاثنين علاقة صداقة ، وكانت طموحات وأمال ابن زيدون السياسية تقذف به إلى الحياة العامة ، فوجدها فرصة لتلك الطموحات وا لآمال ، وفي هذه الأثناء التقى نجمه بنجم ولادة بنت المستكفي ، وكانت فتاة جمية وذكية ومتأدبة بالفنون والاداب ، قوية الشخصية ، غير أن هذا الحب الذي بدأ مبكراً وسريعاً لم يدم طويلاً وقد فتر بالسرعة نفسها التي بدأ بها ، لأن قلب ولادة قد تغير بسبب ما تناهى إلى سمعها عن تعلق ابن زيدون بجاريتها السودا ءالبارعة في الغناء ، وقيل ليثير الغيرة في نفس ولادة فجازته غيظاً بغيظ ، حين اتصلت برجل قليل الذكاء واسع الثراء هو ابن عبدوس، وحينها قطعت حبال الوصل بينها وبين ابن زيدون ، غير أن تعلق ابن زيدون ظل شديداً ، وظل شعره يفيض بحبها ، أما هي فأخذت تهجوه هجاءً مراً .

لقدعبر ابن زيدون عن كوامن نفسه وخبيئات أشجانه، ولواعج صبابته وتشوقه لحبيبته ولادة لسنين طوال من حياته التي كانت مضطربة وشاقة ..

شعره

شعر ابن زيدون هو الصورة الصحيحة لشعر الأندلس ، لانبجاسه من أعماق فؤاده ، وانبعاثه من طبيعة بلادة الجميلة نقرأ في شعره أجود مافاضت به القريحة الأندلسية ، من سمو بالخيال وصفاء بالديباجة، وقد تظهر أحياناً على فخره ومدحه علائم الضعف إلا أنه في الغزل لايضاهيه أحد من شعراء زمانه لرقة طبعه وصحة وجدانه ، فإذا تغزل أو تشوق أو استعطف ، فإن طبعه فياض ، وقلمه لشرحها مجيد ، وسبب ذلك ماقاساه من ظلم ابن جهور له ، وماعاناه من تقلب ولادة عليه لذلك تميّز شعره بـ :

١- **أنّ التعبير الأدبي لايقف على الصدق** أي صدق مشاعر ابن زيدون وعفتها وإنما يستند إلى الإبداع وهذا هو السر في خلود شعره إلى يومنا هذا ، ذلك أن الإبداع نتاج ضروري للملَكة التي لادخل فيها لعرفية اللغة ، واذا كان المجلّي الأكبر للابداع هو أخيلة الشاعر المجردة ثم أساليبه البيانية الرائقة التي يحول فيها العبارات المألوفة إلى صور أدبية يبدعها الأديب في اتجاهين من اتجاهات الخيال :

الاتجاه الأول تخيل أبعاد الصورة وظلالها تخيّلاً أشبه مايكون بأحلام اليقظة و**الاتجاه الثاني** اختيار الاخيلة التعبيرية المجازية

٢- التأثير العاطفي والمشاركة الوجدانية : وتتم هذه المشاركة ببساطة العبارة أحياناً وتكمن في الموقف النفسي للشاعر وعبارته ، والامتزاج في التجربة النفسية للشاعر والمتلقي التي قد تتطلب نوعاً من الحضور والتفاعل بالنسبة للمتلقي ، وبراعة ابن زيدون وشاعريته تجلّت بنقل هذا الموقف البسيط من عموم تجارب الحياة إلى خصوص تجربة الحب .

٣- بساطة العبارات : فالشعر أغراضه معروفة كالمدح وا لهجاء والغزل وغيرها ، وقد شاع في الشعر أنواع من التعبير اخذها الشعراء لاحقاً عن سابق ، فلا تعد من قبيل السرقة الشعرية ، وإنما تدخل في إطار التقليد الشعري، ومن ذلك ماشاع في شعر ابن زيدون من تشبيه الحسناء بالقمر، والماكر بالثعلب ، والغادر بالذئب ..ومنه مايشي من التحية بعبارة السلام عليكم، والوداع بكلمة وداعاً ، والفرح بمجيء البشير ، والدعاء بالمتعة بقوله هنيئاً وما إلى ذلك ، وجميع هذه العبارات يختص بمقامه فيستدعي المزاج الخاص بذلك المقام عند السامع والقارئ ومن ثم يكون أدعى للمشاركة الوجدانية .

المعتمد بن عباد

هو أبو القاسم المعتمد على الله محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي في مدينة باجة قرب أشبيلية وأبوه المعتضد من أقوى ملوك الأندلس في عهد الطوائف ، وقد عرف ببأسه وشدة مراسه وبعد وفاة المعتضد تولى المعتمد أشبيلية وكان في التاسعة والعشرين من عمره، وأصبح صاحب أشبيلية وقرطبة وماحولها واتسع سلطانه حتى وصل مرسية واحتل مكانة أدبية في الأدب الأندلسي أعظم وأهم من مكانة أبيه وهو من شعراء العربية الذين أجمع الناس على الإعجاب بهم في العالم الإسلامي كله ، ولم يُتح لملكٍ ما أتيح للمعتمد في رهافة الحس وشاعرية النفس وكانت أتفه الحوادث التي تمرّ به في حياته سرعان ماترتدي الثوب الشعري .

فقد مر يوماً في قاربه بفتاة على شاطئ نهر الوادي الكبير ، قرب مرج الفضة وطلب من نديمه ووزيره المقرب إليه ابن عمار أن يجيزه في قوله :

نسج الريح على الماء زرد

فتوقف ابن عمار برهة ، وكان على الشاطئ جوارٍ يملأن الماء فقالت إحداهن :

أيّ درع لقتال لو جمد

فأعجب المعتمد بذكاء الجارية وسرعة بديهتها وكانت اعتماد الرميكية ، فاشتراها من سيدها وتزوجها ، وأقام المعتمد قصوراً حول أشبيلية تزخر بالترف وتغرق في الجنات والأشجار والأزهار وقد أفلح في ضم قرطبة لملكه ثم أحسن لأهلها فأحبوه ، ولما هاجم ألفونسو حاكم قشتالة الأسباني البلاد ، هرع المعتمد إلى يوسف بن تاشفين واستنجد به وتصدى المسلمون للفرنجة في معركة الزلاقة التي أطالت بقاء العرب في الأندلس ، ثم خل ابن تاشفين المعتمد بن عباد من ملكة وقيده وحمله أسيراً إلى حصن أغمات قرب مراكش ، وقُتل ولداه ، وتوفيت الرميكية وفي سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م مات المعتمد بن عباد .

كان شعره يمثل صورة حياته ، فشعره قبل أسره تظهر فيه معالم الترف واللهو ، يبدو شعراً أنيقاً يميل إلى التكلّف والبهرجة ويدور حول الفخر والمديح والحماسة ووصف مفاتن الطبيعة ، والعتاب ، أما شعره بعد الأسر فكان أصدق عاطفةً وأعظم أثراً في النفس ، فكان تعبيراً عن حالة الأسر .

ومن الشخصيات المؤثرة تأثيراً كبيراً في حياته"اعتماد " زوجته التي سبق ذكرها ، إذ كان لها الأثر البعيد في نتاجه الشعروي ،كيف لا وقد كان حديثها يفيض عذوبةً وطلاوة وكانت طلعتها مسعدة ، حاضرة الجواب ، بارعة الردود ، وكان فيها رقة طبيعية غالبة ومرح لطيف تشوبه سذاجة الطفولة مسرفة في دلالها ، وقد بلغ من إعزازه إياها أن نظم المعتمد أبياتاً يبدأ كلٌّ منها بحرف من حروف اسمها قائلا :

أغائبةَ الشخص عن ناظري وحاضرةً في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشؤون وقدر السُّهاد
تملّكتِ منّي صعبَ المَرام وصادفت منّي سهل القِياد
مراديَ لُقياكِ في كلّ حينٍ فيا ليت أنّي أعطى مرادي
أقيمي على العهد ما بيننا ولا تستحيلي لطول البِعاد
دسستُ اسمكِ الحلوَ في طَيّه وألّفتُ منه حروف اعتماد

كما يصور لنا المعتمد الحياة الرضية الى كان ينعم بها في أشبيلية في شعر كثير منه :

وترى الكواكب كالمواكب حوله رفعت ثرياها عليه لواءَ
وحكيته في الأرض بين مواكب وكواعب جمعت سناً وسناءَ
إن نشرت تلك الدروعُ حنادساً ملأت لنا هذي الكؤوسَ ضياءَ
وإذا تغنّت هذه في مزهرٍ لم تألُ تلك على التّريك غناءَ

وقد أفصح شعره عن المآسي والمعاناة التي عاشها في الأسر ، حين وقعت" بثينة "إحدى بناته في براثن الأسر وبيعت رقيقة ، واشتراها تاجر وزوجها ابنه ، ونزع واحد ممن بقي له من البنين إلى الثورة على المرابطين ، وشكت زوجته وبناته اللاتي كن يسرن بأرجلهن في العنبر والكافور مرارةَ الفقر والمهانة وذلّ العوز ، واضطررن إلى الغزْل بأيديهن ليكسبن قوتهن كما في قوله :

فيما مضى كنتُ بالأعياد مسرورا فساءك العيدُ في أَ غماتِ مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعةً يغزلن للناس لا يملكنَ قِطميرا
برزنَ نحوك للتّسليم خاشعةً أبصارهنّ حسيراتٍ مكاسيرا
يِطَأ نَ في الطّين والأقدامُ حافيةٌ كأنّها لم تطأ مسكاً وكافورا

بيد أنه كان يتعزى في أثناء هذه المحنة برؤية جماعة من الشعراء كان عرفان الجميل يدفعهم إلى زيارته في منفاه ... وقد نظم المعتمد أبياته وأوصى أن تكتب على قبره ، وشبه نفسه فيها بـ " الجبل يتهادى فوق أعواد " في قوله :

قبرَ الغريب سقاكَ الرائحُ الغادي حقّاً ظفرتَ بأشلاء ابن عبّادِ
بالحِلم بالعلم بالنُّعمى إذا اتصلت بالخصب إن أجدبوا بالرّيِّ للصادي
بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا بالموت أحمرَ بالضّرغامة العادي
بالدهر في نِقَمٍ بالبحر في نِعَمٍ بالبدر في ظُلَمٍ بالصدر في النادي
ولم أكن قبل ذاك النعشِ أعلمه أن الجبال تهادى فوق أعواد

تحليل نونية ابن زيدون

١- أضحى التنائي بدلاً من تدانينا وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
٢- ألا وقد حان صبح البين صبّحنا حينٌ فقام بنا للحين ناعينا
٣- مَن مبلغُ الملبسنا بانتزاحهمُ حزناً مع الدّهر لا يبلى ويُبلينا
٤- أنّ الزمان الذي ما زال يضحكنا أنساً بقربهمُ قد عاد يُبكينا
٥- غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعَوا بأن نغضّ فقال الدهرُ آمينا
٦- فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولا بأيدينا
٧- وقد نكون وما يُخشى تفرُقُنا فاليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا
٨- لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأياً ولم نتقلّد غيرَه دينا
٩- ما حقُّنا أن تُقرّوا عين ذي حسدٍ بنا ولا أن تُسِرّوا كاشحاً فينا
١٠- بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
١١- نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا
١٢- حالت لِفقدكمُ أيّامُنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً لياليا
١٣- لا تحسبوا نأيكم عنّا يُغيّرنا إذ طالما غيّر النأيُ المُحبينا
١٤- يا جنّة الخلدِ أُبدِلنا بسِدرتها والكوثر العذْبِ زقّوماً وغِسلينا
١٥- كأننا لم نبت والوصلُ ثالثُنا والسّعدُ قد غضّ من أجفان واشينا
١٦- إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاءُ بكم في موقف الحشر نلقاكم وتلقونا
١٧- عليكِ منّا سلامُ الله ما بقيت صبابةٌ بك نخفيها وتُخفينا

البنية الفكرية :

قبل البدءبعرض الفكر لابدّ لنا من الوقوف على أهمّ الحقول المعجمية الواردة في النص والتي يمكننا من خلالها الوقوف على محاوره وفكره بوضوح .
أ – معجم الفراق : التنائي – تجافينا – البين – الحين – ناعينا – يبكينا – تفرّقنا – بنتم – تجافينا – الأسى – لفقدكم – نأيكم – النأي .
ب- معجم اللقاء : تدانينا – لُقيانا – بقربهم – أنساً – موصولاً- تلاقينا – الوصل .
ج – معجم الزمان : أضحى – صبح – صبحنا – الدهر – الزمان – لياليا .
ومما سبق نجد أن المعاجم الثلاثة السابقة تدور حول أمرين أساسيين في أزمنة متعدّدة ، فالفراق حاضر الشاعر واللقاء يمثّل ماضيه ، أما الزمان فقد كان دليلاً على تحول حال الشاعر بين الماضي والحاضر وناقلاً لمأساته في الوقت عينه .
فالفكرة العامة للنص تصور تغير حال الشاعر بين لقاء المحبوبة أو التواصل معها في الماضي وفراقها في الحاضر .
وقد رأينا في البيت الأول هذا التحول بين التلاقي والتداني والتنائي والتجافي ، ولعلّ هذه الثنائية الضدّيّة التي بدأ بها الشاعر أبياته تنسحب على معظم أبياته ، لتخبرنا بعدم استقرار الشاعر وقلقه المستمر وتغيّر مسار حياته الذي اعتاد السير فيه .
وقد استمرت الحال في البيت الثاني الذي عبّر فيه عن حالة الفراق مستخدماً ثنائية الصبح مقابل الفناء ، لأنه نقله من حال الراحة والحياة السعيدة مع ولادة إلى حال الهمّ والحزن الذي يقضّ مضجعه ويقضي على كلّ أمل له في الحياة .
وفي البيت الثالث وجدنا فيه رسالة إلى منافسه في حبّ ولادة " ابن عبدوس " الذي وشى به وخرّب علاقته بها ، كما نجد رسالة إلى محبوبته يخبرها فيها بأن ما وصلها من وشايات المبغضين كانت سبباً في تحوّل حياته وخرابها .
وفي البيت الرابع بيّن أن الزمان الذي كان مصدراً للأنس بقرب المحبوبةسرعان ما أصبح مصدراً لأحزانه وكآبته بسبب الفراق الذي جعل من الشاعر أسير زمنين : الماضي الجميل برفقة المحبوبةوالحاضرِ المؤلم بعد فراقها له .
واستمرّ الشاعر في البيت الخامس في الإشارةإلى أشباب واقع المؤلم ، إنهم منافسوه في حبّ ولادة ، فقد كانوا يضمرون له البغضاء والكراهية حسداً منهم بسبب علاقته القوية بولادة ، وكانوا يتمنون له عيشاً مرّاً ، كذلك كان الزمان على عادة الشعراء مصدراً من مصادر آلامه لاستجابته رغبةَ أعدائه وتحقيقه ما يريدون .
وعاد الشاعر في البيت السادس إلى تلك المفارقة الضدية ، فالوصال الذي يمثله الماضي حلّ محلّه الفراق في حاضر الشاعر المؤلم ، نتيجةً لوشايات المبغضين واستجابة الزمان لرغباته ، فأصبح الشاعر أسير واقع مؤلم يقضّ مضجعه باستمرار .
والماضي الجميل برفقة المحبوبة في البيت السابع لم يخشى عليه الشاعر عند كان يمثّل حاضراً له وهو برفقة ولادة ، لكنه عاد إلى واقعة المرّ بعد حصول الفراق واستحالة العودة .
وفي البيت الثامن نرى أن البغضاء والكراهية التي أبدتها المحبوبة لم تكن في حسبانه ، لأن الوفاء حسب تعبيره كان شعاراً له ، ومن الغريب عليه هذا التحول المفاجئ .
ثم رأينا الشاعر في البيت التاسع يستجدي محبوبته ألا تكون مصدر شماتة أعدائه به ، فعلاقته السابقة بها كانت مصدر غيرة كثير من الناس في إشارة منه إلى ابن عبدوس الذي يحمل في نفسه شتى أنواع الكراهية للشاعر .
وفي البيت العاشر يبيّن الشاعرلنا ما ينتجه الفراق من ألم وحزن وحسرة ، فقلبه قد أصبح جامداوالدماء لا تتحرّك فيه وكأنها جفّت بسبب حزن الشاعر وكآبته ، وكانت عيونه تفضحه باستمرار لأن الدموع لا تتوقف أبداً .
وأصبح الشاعر في البيت الحادي عشر في حالة مزرية ، فكلّما خطرت المحبوبة في باله تستحيل حياته لهيباً يكاد يدمّره لولا وجود بارقة الأمل بإدراك المحبوبة الحقيقة أو الرجاء بعودة المياه إلى مجاريها السابقة معها .

وعاد الشاعر في البيت الثاني عشر إلى الثنائيات الضدية التي لا تكاد تفارقه بيّن لنا من خلالها تغير حاله من الفرح والأمان إلى الحزن والقلق المستمرّين ، فالسواد اتشحت به صور الحاضر المؤلم ، أما البياض فكان لون الماضي الجميل برفقة المحبوبة ، ولا يفتأ الشاعر في البيت الثالث عشر يؤكّد ثباته على ما كان عليه من حبٍّ قويّ ووفاء صادق مستمرّ لا يوجد لدى كثير من المحبين .
وفي البيت الرابع عشر استعان الشاعر بمخيّلته الخصبة لبيتن حاله المتعبة نتيجة الفراق ، عندما جعل من الماضي جنة من جنات الخلد أما الحاضر فصار جحيماً يُسقى فيه الشاعر شتى أنواع العذاب والألم " الزّقوم والغسلين " .
ويتعجّب الشاعر في البيت الخامس عش مما حصل معه بين ليلة وضحاها ، ويشك في حقيقة ما أصابه ، فقد أصبحت صورة الماضي الجميل بما فيه من ذكريات جمعته بولادة مشوّشةً غير واضحة ، وهذا كان مدعاةً لسعادة الكارهين للشاعر .
ويجد الشاعر حلاً للخروج من واقعه المؤلم في البيت السادس عشر ، فأرسل خطاباً للمحبوبة يوحي لها بعظمة حبه لها ، فهو حبٌّ دائم لا يحيط به زمن ، ولقاؤه بها سيتحقق إن لم يكن في الدنيا فسيكون في الآخرة .
وفي البيت السابع عشر يختم الشاعر نصه بإرسال التحية لمحبوبته وبثّ لواعج الشوق التي تحرق قلبه .

٢- البنية اللغوية :

كانت ألفاظ الشاعر بمثابة الروح للجسد استطاع من خلالها التعبير عن رغبته القوية بلقاء المحبوبة وحزنه الشديد على فراقها ، وهي ألفاظ تتسم بالعذوبة والرقة والوضوح بما يلائم موضوع الغزل الذي لايعطي الشاعر مساحة لغوية كبيرة من جهة ، ولأن الحالة الانفعالية تجبر الشاعر على الالتزام بتلك السمات لألفاظه .
ولذلك نجد ألفاظه قد جاءت استجابة لتلك الحالة الانفعالية دون أيّ كدٍّ ذهنيّ أو إجهادٍ لفكر الشاعر ، مثل (التنائي – لقيانا- تجافينا) وهي ألفاظ تتطابق مع غرض الغزل .
واتسمت ألفاظ الشاعر في نصه بقدرتها على الإيحاء بحالته القائمة على الرغبةالقوية في الخروج من واقعه الأليم ، فألفاظه الخاصة بالفراق أوحت لنا بواقعه الأليم الذي سُدّت أمامه كلّ الطرق للخروج منه .
أما تراكيب الشاعر فكانت مترابطة موحية بحالة الشاعر وواقعه الصعب غير المستقرة للشاعر ونلاحظ فيه غلبة الجمل الفعلية على الاسمية في دلالة على الحالة الانفعاليةغير المستقرة لدى الشاعر ، كذلك استخدم الأفعال بأزمنة متعددة ، فاستخدم الفعل الماضي مثل (أضحى – ناب ...) ليدل على تحقق حالة الفراق وثبات وقوعها ، واستخدم الأفعال المضارعة مثل (نغصّ- يُخشى – يُرجى) ليؤكد استمرار تلك الحالة المؤلمة .
وغلبت الجمل الخبرية على الإنشائية لتمكين الشاعر من سرد أحداث الفراق والذكريات الجميلة التي ذهبت أدراج الرياح مع أول هبة نسيم للفراق .

٣- البنية العاطفية :

لعل أول ما تتسم به عاطفة الشاعر الذاتية هو الصدق الذي تضافرت عناصرمتعددة في تأكيده ، منها اللغة والأساليب والتراكيب كما أسلفنا .
وإن أردنا الوقوف على أهم المشاعر ، فلا بدّ أن نجعل الحزن أولها لأنه كان النتيجة الأولى لفراقه المحبوبة يرافقه مشاعر متعددة مثل الألم والحسرة والشوق إلى أيام الماضي الجميل .
فقد تضافرت المشاعر في تكوين حال الشاعر القلقة والمجبولة على الحزن والألم والشوق والإحساس بالضعف والعجز أمام ذلك الواقع الصعب .

٤ – البنية الفنية :

ما يميز هذا النص من غيره ثناثر الصور بكثرة في حناياه على الرغم من الحالة الانفعالية التي قد تكون عائقاً كبيراً أمام كثير من الشعراء في تكوين حالة جمالية تعتمد على التصوير ، لنحلص إلى الحكم على الأبيات بأنها مستقاة من البيئة الأندلسية الساحرة وثقافة الشاعر الكبيرة .

وأول تلك الصور " صُبح البين " شبه فيها البين بالصبح ، فالشاعر فوجئ بنبأ الفراق بعد ليلة هانئة قضاها مع ولادة ، والصورة التي وردت في البيت الرابع " الزمان ما زال يضحكنا " في مقابل صورة مناقضة لها : عاد يبكينا " وهما استعارتان بين لنا الشاعر فيهما تلاعب الزمان به وقدرته الكبيرة على تغيير حاله وقلب حياته رأساً على عقب .
وفي البيت الخامس نجد صورة " تساقينا الهوى " عندما شبه الهوى بشراب فيه لذة إيحاءً منه بلذة اللقاء وجمال الذكريات في الماضي ، ليختم البيت بصورة " فقال الدهر آمينا " التي تُظهر شراكة الزان لخصومه في العداوة .
والكناية في قوله " فما ابتلت جوانحنا " كناية عن صدمة الشاعر نتيجة شوقه الشديد لها ، وقوله " لا جفّت مآقينا " كناية عن استمرار الحزن والبكاء على الفراق ، والاستعارة في البيت السادس " يقضي علينا الأسى " توحي بشدة حزن الشاعر بقدرٍ لا يحتمله كائن حيّ .
واستعان الشاعر بالرمز في البيت الثاني عشر عندما جعل السواد رمزاً لحزنه وواقعه المؤلم ، والبياض رمزاً لأيامه الجميلة المليئة بالفرح والسرور .
ولانسى إكثار الشاعر من المحسنات البديعية بنوعيها اللفظي والمعنوي ، مثل التصريع والطباق والجناس مما أغنى موسيقى النص وساهم بنقل الحالة الانفعالية المتنوعة .

٥ – البنية الإيقاعية :

وسنبدا الحديث فيه عن :
أ – الإيقاع الخارجي: فقد استطاع الشاعر أن يستخدم البحر البسيط بسهولة ويُسر لينقل لنا من خلاله فكره ومشاعره الذاتية المتنوعة .
وكانت قوافي النص منسجمة مع حالة الشاعر القائمة على الشكوى من الفراق ولواعجه كما توافقت القوافي مع حرف الروي " النون المشبعة بالألف لتطلق من خلالها صحيحة الألم الذاتية الخاصة به دون غيره .
ب- الإيقاع الداخليّ : تنوعت مصادر الإيقاع الداخلي في النص مثل الصريع في البيت الأول " تجافينا – تلاقينا " وتكرار الحروف مثل حرف النون الذي أضفة على النص موسيقى تتماشى وتتناغم مع أنين الشاعر واضطرابه .
وتكرر استعمال الأحرف الهامسة في النص ليبثّ لنا الشاعر من خلالها تجربته المؤلمة، كما تضافرت تلك العناصر في ملاءمتها الحالة الانفعالية القائمة على الحزن والشكوى من الفراق والأمل بعودة الماضي الجميل .
وفي النهاية رأينا تضافر البنى المتنوعة في النص في تشكيل حالة جمالية رائعة عبّرت عنها حروف الشاعر وصوره وموسيقاه ليخرج هذا النصّ لوحة بديعةً تضاف إلى روائع الشعر العربي في الأندلس وغيرها .